سعدي شاعر الفرس الكبير

جن عليّ الليل وكنت مشرّداً طريداً ، فاويت الى سفح جبل مرتفع مهيب ، توسدت صخرة وبت هناك خائفاً مترقباً. هنالك قدحت زند الفكر واحمدت نار الوجل ، هنالك شغلت قلبي وجميع جوارحي عما دهاني بمنظر الزرقاء البهيج ، سرحت طرف طرفي في رياض السماء الغناء وكللت ناظري ببهاء النجم السني ، يالهامن ليلة جمعت بين الوحشة والجمال في حين وحال ، هي ليلة علمتني سر الوجود ، علمت ان لا شيء وراء حجاب ، وفيها درست عنوان البقاء فايقنت ان كل شيء هالك الاّ الجمال . خيّل اليّ انّ تلك الصفحات صحائف زرقاء خطت عليها الشهب الفضية بقلم ذهبي بديع ، فهي سطور زاهيات في تلك الطروس ، وهي آيات بيّنات في ذلك الشعر الكريم ، وهي لو علمت ايها المحدّق الى النجوم قصائد وابيات من فنون الشعر الجميل

السماء وما السماء الاّ ديوان شعر ، الشعر وليس الشعر سوى قلوب حرّى لفظتها الانفاس الحرار ونثرتها على صدر الفضاء ، فعادت شراراً لامعاً ونظماً بديعاً تحلى به عاطل السماء في الليلة الظلماء ، فقلت في نفسي : « يأخذ الأديب ديوان احد الشعراء ويتصفحهُ فتعتريهِ هزّة المتفض وجداً ، وينشأ بهِ ارتياح المنتعش جذلاً ، وما ذلك الاّ طرباً واعجاباً بمعانيهِ. فهل السماء وما تحوي من صنوف الدراري الزاهيات واقسام ومجاميع النجوم الزّاهرات ، من نظيم ونثير الاّ ديوان اكبر شاعر نظم فابدع ونظّم فاحسن ما شاء وشاء لهُ الجمال ، ولا شاعر في الوجود اكبر من الطبيعة ولا نظم احسن من نظمها البديع

ثم اعتراني الرعب قليلاً فاوجست خيفةً في نفسي فهوّنت عليها وصرفت النّظر عن الاثير وما فيهِ من جمال وبهاء وانصت برهة فسمعت رنّة هناك وانيناً يرجع صداهُ ذلك الطّود العظيم ، من نسيم هبّ على الاشجار فعبث باصداغها وحرّكها فاهتزّت من فرع الى ساق وصفقت بالاغصان والاوراق ، فترنّحت اغانيها فهي ما هي الاّ اوتار اوقع عليها النسيم فهاجت الحانها ، فقلت في نفسي ايضاً : « يسمع الانسان نغمات الموسيقي فتطربهُ هزجاً في هزج وتشجيهِ او تسليهِ ، وهذه الطبيعة تضرب على اوتار الاشجار فتثير ما تثير من اغاني مشجيةٍ والحان معبدية ، واذا مرّت الصبا في مضيق الجبال فسمعت هبوبها حنيناً محزناً او نغمة مطربة

فما ذلك الا صوت يخرج من صدر حروج وكبد مقروحة . فالسماء ديوان شعر صامت وما النجوم الا قصائد وابيات، وهبوب النسيم نغمات شعرية فصيحة وما الشجر الا اوتار وآلات . ما الشعر الا ذرات امتزجت بالكون واختلطت بالموجودات من حيوان وجماد ونبات كاختلاطها بالنفوس البشرية

ثلاثة هن كل ما في الطبيعة من حسن وبهاء : الشعر والموسيقى والجمال ، وهذه الثلاثة ان هي الا اقانيم تندمج في روح واحد الا وهو الجمال

الجمال هو سر الوجود . الجمال عنوان البقاء . الجمال هو الحقيقة

حق للناس ان يعبدوا الجمال في كل شيء شعراً كان او موسيقى او سراً آخر من الاسرار وما سواهُ باطل ضليل . وهذه الثلاثة وجدت وكانت قبل القبل اولاً ، وسوف تبقى بعد البعد ابداً ، فليس للشعر بداية ولا نهاية وكيف يستطيع المؤرخون ان يسندوهُ الى عصر او يحصروهُ في رجل ؟ ولكن مؤرخي العجم يزعمون ان اول شاعر فارسي قاه بالنظم هو (رودكي) قائد شعراء الفرس وحامل لوائهم واول بيت قالهُ ما هذه ترجمتهُ :

« أترى ظبي الفلا يعدو فيرقى الجبلا مالهُ خل فهل يسطيع يطوي القللا »

ولو ساغ لي ان ارد التاريخ لانكرت ذلك ولميزت شاعرهم بالفهاهة فلا بد وان يكون قبل (رودكي) بعدة احقاب من نظم خيراً من هذا البيت التافه البسيط غير انهم لم يطلعوا عليهِ . فالشعر عند كل امة وفي كل بلاد ليس لهُ تاريخ خاص او عام يحصرهُ في عصر او يسندهُ الى مصر ولكن ما تتبعهُ الرواة هو ما قيل عنهُ : « اول شعر لاول شاعر »

قام في ايران بعد (رودكي) عدة شعراء اشهرهم (الفردوسي) الذي ترجم كثير من شعرهِ الى اللغات الغربية ثم (الانوري) و(العنصري) و(العسجدي) و(الدقيقي) وكثير غيرهم من فلاسفة الشعراء مثل (عمر الخيام) و(مسعود بسعد سلمان) و(خسرو ناصر العلوي) ثم يتلوهم (الخاقاني) و(ظهير الفاريابي) وجماعة آخرون لا يسعنا ذكر اسمائهم او اجمال احوالهم . وان سعدي الذي عنونت مقالتي هذه بهِ هو اكبر الشعراء بعد الفردوسي واوسعهم باعاً واعذبهم مقالاً واكرمهم تفنناً وكل شعره حسن لا تجد بين سمينهِ غثاً ولا في متينهِ خشناً ولا في جزلهِ نهاهة ولا في رقيقهِ تفاهة . ولم ار بين شعراء الفرس من يباريهِ بالوصف او يحاذيهِ بالتشبيه فلا غزل اوق من غزلهِ ولا موعظة ابلغ من موعظتهِ ولا ولا . . . وقد اجمع ادباء الفرس من

السلف والخلف على تقدّمه لولا الفردوسي وأنه كان قد فاق الفردوسي بفنونه ورواياته وفلسفته وعرفانه وغزله وقد قيل فيه وفي (فردوسي) و(انوري) ما هذه ترجمته لفظاً بلفظ :

ثلاثة هم انبياء الشعر قد قيل فيهم « لا نبي بعدي »
هم في سماء الفضل مثل الزهر (فردوسي) ثم (انوري) و(سعدي)

وظهر بعد سعدي ايضاً عدة شعراء ولكن غارات التتر والمغول قضت على الروح الادبي بما فيه من قوة وبراعة وقد ضاع فضل من تقدم او تأخر بسبب تلك الحروب واعظم من قام بعد سعدي هو الشيخ حافظ الشيرازي وكمال الدين خلاّق المعاني الاصفهاني

ولد الشيخ سعدي الملقب بمصلح الدين بن الشيخ عبدالله مصلح الدهر في سنة ٥٨٠ هجرية في مدينة شيراز وتوفي فيها سنة ٦٩١ فعمّر مائة واحدى عشرة سنة وضريحهُ اليوم مزار ومطاف يزورهُ كل من يدخل بلده شيراز ومقبرتهُ متنزه عام تحف بهِ الاشجار والفارسيون يحترمون قبرهُ كثيراً

ترعرع الشيخ سعدي في احضان ملوك (الاتابكية) [1] وشب في قصورهم وتعلم على نفقتهم وكان ابوهُ من حاشية الملك ابي بكر سعد بن زنكي واليهِ انتسب هذا الشاعر فسمي سعدي او في عرف ادباء الفرس تخلص بسعدي (والتخلص في اصطلاحهم هو ان يتخذ الشاعر لفظة خاصة فيتلقب او يتسمى بها دون غيره ولا بد ان يختم شعره بتلك اللفظة فلا تكاد تجد قصيدة أو مقطوعة الا وفي ختامها اسم ناظمها) وطلب العلم وهو ابن اثنتي عشرة سنة حتى بلغ الثلاثين وحضر درس الامام ابي الفرج ابن الجوزي في بغداد وتلمّذ على يدهِ وقضى مدة تحصيلهِ العلم في المدرسة النظامية في بغداد السلام وكان مجذوباً للعارف الشيخ شهاب الدين السهروردي كما صرح هو بذلك في اشعارهِ وقضى اربعين سنة في التجول والترحال وحج الى الكعبة خمس عشرة حجة ماشياً وقضى برهة في الشام وفلسطين مشتغلاً بالسقاية اي كان سقاء يبيع الماء وهي مهنة حقيرة . ثم دخل في جيش المسلمين متطوعاً على عهد الحروب الصليبية فاسرهُ الافرنج وذهبوا بهِ الى بلادهم . وقد زار كثيراً من الممالك والمدن كالهند والحبشة ومصر ومراكش وسورية وديار بكر والحجاز وبلخ واذربيجان والعراق . وكانت سياحتهُ على الغالب ماشياً كما ذكر

(١) بالكاف الفارسية نسبة الى اتابك لقب كان يلقب به كل ملك في ذلك الزمان في مدينة شيراز وكان قبل الدستور الفارسي لقب لامير الجيش والصدر الاعظم فنسخ

ذلك العلامة الجامي وكما صرح هو بذلك في اشعاره وكثيراً ماكان يشكو ألم السير ويتأوه منهُ ويتأفف من بعد الشقة وطول السفر ووعورة الطريق وصعوبة الجبال ولكنهُ اكتسب من سياحته فضلاً غزيراً وغيرة نافعة واطلع على عجائب جمة قصها في اشعاره وشاهد غرائب كثيرة هذبت نفسهُ الكريمة وصيرتهُ عصاميًّا عبقريًّا فاخذ يعظ الناس ويدعوهم الى الفضيلة وينهاهم عن الرذيلة ويحثهم على الحب والسلام ويضرب لهم الامثال ويروي لهم القصص المفيدة. واكثر حكاياته مشاهدات وامثال وقد كان في شيراز ذا عيشة راضية ومقام رفيع ولكنهُ فضَّل الترحال على الاقامة ونبذ ذلك العيش الرغد واعتمد على نفسه فجاب البلاد طولاً وعرضاً

كان الشيخ سعدي متديناً سنّيا متعصباً يرى خلفاء بني العباس أئمة ذوي عصمة وشأن يؤهلهم لخلافة رسول الله كما يتضح ذلك من مراثيه العربية حيث رثى بها المستعصم آخر خليفة عباسي في بغداد . وكان خفيف الروح طروباً اريحياً اشتهر باللهو والتصابي بل عرف بالخلاعة والمجون حتى نهاهُ استاذهُ ابن الجوزي عن تصابيه ولامهُ على ذلك وكان كلما آب اليه رشدهُ تاب واناب وهو في جميع اطواره المتضادة ، اي انهُ بينما كان يدعو الى الطرب واللعب كان يحب العزلة والفلسفة ويحث عليها ويلوم على حب الدنيا وجمع الحطام ، على هذه الاحوال لم يكن الاَّ ظريفاً مهذباً دمث الاخلاق لين العريكة كريم النفس وربما اخطأت بتعريفه بالمجون ووصفه بالخلاعة وان اشتهر بهما ولكن من المحتمل جدًّا ان تلك تهمة سددها اعداؤهُ اليه . والفرس يحكون عنهُ حكايات كثيرة عجيبة متضاربة كلها او جلها مختلق وهو بالامس واليوم سمر السامرين وحديث المسافرين يحفظ شعرهُ الملوك ويترنم به الصعلوك ويرتزق به المسكين ويقلدهُ الاديب ويعتمد عليه الكاتب وهو امام الفصحاء عندهم وبالجملة هو رب الشعر الفارسي بلا مراء

﴿ شعرهُ او كلياتهُ ﴾ للشيخ سعدي كتاب جمع كل آثاره من منظوم ومنثور ، فارسي وعربي وهذا الكتاب يسمى : « كليات سعدي » ومنهُ « كتاب المسائل » وهو حكم ومواعظ اكثرها ديني وحكايات صغيرة واحاديث نبوية ومنهُ « كلستان » اي الرياض وهو خير كتاب اخرج للناس حتى ان البعض بالغ فيه فجعلهُ في عداد الكتب السماوية والفرس يعتنون بهذا الكتاب كثيراً ويفضلونهُ على كل لوح مسطور حتى انك لا تجد متعلماً صغيراً او كبيراً مدنياً او قروياً ذكراً او انثى الاَّ وقد درس هذا الكتاب وحفظ بعض اشاره . وامثالهُ وحكمهُ يتمثل بها كل اديب او متعلم واليوم

يدرسهُ جميع التلامذة في جميع المدارس الفارسية . وقد ترجم هذا الكتاب الى كثير من اللغات واعجب بهِ الغربيون وقدروهُ حق قدرهِ. وقد بلغني ان صاحب الجوائب احمد فارس الشدياق طالع هذا الكتاب بالفرنسية وقال ان العربية غنية عن مثله وانا استطيع ان اكتب مثلهُ او خيراً منهُ . فان كان حقاً ما قال فأنهُ اما لم ينصفهُ واما ان تكون الترجمة التي قرأها قد بخست حق الكتاب وحق مؤلفهِ . ومن اراد ان يتحقق ذلك فليراجع الاستاذ ادوارد برون معلم اللغات الشرقية والاستاذ للفارسية في لندن فانهُ معجب بالشيخ سعدي ايما اعجاب . ثم يتلوهُ كتاب « بوستان »(١) البستان وهو ايضاً قصص وروايات وحكم بل هو آيات معجزات جمع بين الجزالة والمتانة فهو سهل ممتنع وهو من البلاغة والفصاحة في المحل الاعلى وفيهِ ابواب كباب الكرم والسخاء وغيرها وقد ترجمت من هذا الباب بعض الحكايات التي تتعلق بالعرب . ثم يتلوهُ القصائد العربية وغثها اكثر من سمينها والتافه منها اوسع من ثمينها فانهُ على اتقانهِ اللغة العربية لم يستطع ان ينظم فيها نظماً حسناً بل تكلف كثيراً فاتى بالفهاهة والخشونة مما وان كان بعض شعرهِ العربي مقبول حسن بل شعر عربي كريم لكنهُ قليل جداً ينحصر في قصيدة واحدة وعدة ابيات سانقلها للقراء في الختام ولا اظن ذلك ينقص قدرهُ او يحط من مرتبتهِ فان الرجل فارسي . وكان الشيخ سعدي يحب العرب كثيراً ويفضلهم على جميع الامم حتى على قومهِ ويبالغ في كرم اخلاقهم وشجاعتهم ومروءتهم ويثني عليهم كثيراً واكثر حكاياتهِ تتعلق بالعرب ورجالهم وبلادهم وهم عندهُ مضرب الامثال ومحط الرحال . وقد اتهمهُ خصومهُ بان كل معاني شعرهِ او جلها مأخوذ عن العرب وليس هذا حقاً ولا اراهُ صدقاً فان في شعرهِ معاني لم يحلم بها شاعر عربياً كان او فارسياً ولكنهُ اقتبس بعض المعاني من العرب وادمجها في شعرهِ ولا بأس بذلك. وان للشيخ سعدي حقاً على العرب وادبائهم بما قالهُ عنهم من شعر ونثر وهو الذي هذب اللغة الفارسية ووسعها باستعمال العربية في شعرهِ . والفردوسي على الضد منهُ كان عدو العربية وخصم العرب فلا تجد في نظمهِ وهو ستون الف بيت الا عشرات الكلمات العربية وعلى كل حال فان كلاً منهما يستحق العظمة والتبجيل فانهما شاعرا العالم الكريمان

ميرزا عباس الخليلي

صاحب جريدة اقدام الفارسية

(١) اصل لفظه بستان (بوستان) بو بمعنى رائحة وستان بمعنى محل او مركز